الزبيري ... شاعر اليمن

بقلم الدكتور عبد العزيز عتيق

— ١ —

اتحدث اليكم الليلة (١) عن رائد من رواد الشعر العربي المعاصر في اليمن . والهدف الذي ابغي الوصول اليه من وراء هذا الحديث هو بيان الدور الطليعي الذي قام به الشعر اليمني المعاصر في التوعية الثورية التي انتهت بالشعب الى تحطيم قيوده والانطلاق الى تشكيل مصيره كما يريد هو ، لا كما يريد له حكامه المستبدون .

والثورات لا توجد من عدم ولا تولد من فراغ ، وانما هي وليدة احداث تاريخية لها دوافعها والدافعون اليها . والشعوب لا تقوم بالثورات اعتباطا ، ولا لهوا وعبثا ، وطيشا وحمقا ، انما تلجأ الشعوب الى الثورات او تكره عليها عندما تتأزم امورها ويصبح الاختيار امامها اختيارا بين التقدم او التخلف ، والعدل او الظلم ، والحياة او الموت !

ورجال الفكر وارباب الاقلام عادة في طليعة الدافعين الى الثورات والممهدين لها : فهم الذين يبصرون الشعوب بحقوقهم ويدافعون عن هذه الحقوق ، وهم الذين يتعاطفون مع الشعوب في كل ما ينزل بهم من سوء لانهم منهم ، وهم الذين يتصدون للحكام الجائرين ويظهرونهم على حقيقتهم حتى لا يطول امد انخداع الشعوب فيهم ، ثم هم بكل هذا وبغير هذا يمهدون للثورات ، اذا كان لا بد منها ، طريقها المحتوم .

والكلمة ... الكلمة التي تنزل على قلوب الشعوب المقهورة بردا وسلاما ، وعلى نفوسهم عزما واصرارا ، وعلى جراحهم بلسما وشفاء ، هي نفس الكلمة التي تنفذ الى اعماق اعماق الطغاة براكين متفجرة وقنابل مدمرة !

هذه الكلمة التي اودعها الله كل هذه القوى والاسرار هي السلاح الذي يحمله رجال الفكر وارباب الاقلام ، وما اكثر الصور التي تبدو او تتجسد فيها بين مقروءة ومسموعة !

ولكن هذه الكلمة الالهية التي لها كل هذه القوى والاسرار لم تستطع ، وقد تلقاها رجال الفكر في اليمن ، ان تعبر عن نفسها الا في صورة واحدة مسموعة ، هي صورة الشعر !

اجل كانت الكلمة الشاعرة هي الوسيلة الكبرى لتوعية الشعب اليمني قبل الثورة ، وذلك لانعدام ما عداها من الوسائل التي تتخذها الكلمة سبيلا الى الناس مقروءة او مسموعة !

ومع ذلك فقد لعبت الكلمة الشاعرة دورا اساسيا خطيرا في هز روح الشعب اليمني وايقاظه وتحريكه ، كما كان لها المحل الاول في توعيته الثورية ، وتوجيهه صوب هدفه لتحقيق وجوده كانسان . فالشعب اليمني العربي ، بطبيعته يحب الشعر ، ويطرب له ، ويترنم به . ورب بيت واحد من الشعر لمس قلبه ، كان عنده اقوى اثرا واشد وقعا من مضمون مقال او خطاب او كتاب !

من اجل ذلك عرف رجال الفكر من احرار اليمن وثواره ، كيف يدخلون عليه من الباب الذي يفضله ويؤثره ، وبأي لغة يتحدثون اليه حتى يفهمهم ويستجيب الى دعوتهم !

وقد عرف اليمن في مراحل نضاله السياسي الذي توج اخيرا بالثورة واعلان الجمهورية — كثيرا من ابنائه الشعراء الذين غنوا له بملاحم رائعة من الشعر الثوري ، وتحملوا في سبيل تحريره وانطلاقه ابشع الوان العذاب والغدر والانتقام .

وقصص اولئك الشعراء الابطال باهرة رائعة ، لما اشتملت عليه من معاني الولاء والوفاء ، والبذل والفداء ، والتضحية والابداع . وهي في تاريخ اليمن الثوري الحديث بلا شك صفحات فخار ومصدر الهام للاجيال القادمة !

من اولئك الابطال — مثلا — عبد الله البردني الشاعر الضرير : عذبه الائمة وسجنوه عدة مرات بسبب شعره الثوري ، ومع ذلك ظل ثائرا متمردا حتى شهد الثورة فغنى — ولا يزال يغني — بانتصاراتها !

ومنهم علي عبد العزيز نصر : وقد اضطر من شدة الاضطهاد ان يهاجر الى عدن حتى اذا قامت الثورة عاد الى اليمن ، لقد كان هذا الشاعر الموهوب ينشر قصائده الثورية في الصحف العدنية فتحدث دويا هائلا . وكان اليمنيون من شدة اعجابهم بها يحفظونها ويتناقلونها ويترنمون بها فتأخذ بمجامع البابهم وتلهب مشاعرهم وخواطرهم ؟

ومنهم السيد احمد المطاع : شاعر ساهم في ثورة ١٩٤٨ مساهمة ايجابية فعالة ، ولكن الحكام الطغاة تمكنوا منه فاعدموه ومثلوا بجثته ، انتقاما لاشتراكه في الثورة !

ومنهم احمد الوريث : ويعد من اكبر المفكرين اليمنيين نثرا وشعرا، وقد حاول الامام يحيي ان يستميله اليه ، فلما ابى الشاعر بيع نفسه ومبدئه اوعز الامام الى بعض زبانيته فدسوا له السم فمات مسموما ، ومنهم غير هؤلاء كثيرون وكثيرون .

ثم منهم محمود محمد الزبيري : الشاعر الرائد ، والذي اتخذ من شعره الثوري موضوع محاضرة الليلة .

— ٢ —

والزبيري ، بالاضافة الى كونه شاعرا ، ذو عقيدة سياسية ، عقيدة ترمي الى العمل الايجابي بالقول والفعل ، من اجل قضية الانسان المواطن حرية وكرامة ، ومن اجل تحطيم كل القيود التي تحرمه الحركة ، وكل السدود التي تحول دون تقدمه وابداعه في الحياة لنفسه وللانسانية .

ووفاؤه لعقيدته السياسية هذه فرض عليه فيما فرض ان يتقدم جريئا الى المعركة ، وان يدافع فيها مستميتا . ولكن عن اي شيء يدافع ؟ ولماذا يدافع ؟

عن أي شيء يدافع ؟

وهل هناك مطلب أجل واشرف من ان يدافع الانسان المؤمن المفكر حفاظا على شرف وطنه ، واستردادا لحرية قومه وحقوقهم السليبة ، وهل هناك ما هو ابقى للانسان من ان يعمل على ايقاظ شعبه المغلوب على امره من سباته العميق ، وان يبصره بما يعيش فيه من واقع رهيب، حتى يثور على اعداء انسانيته ، ثم يمارس نشاطه في الحياة كسائر الشعوب الطليقة المنطلقة !

ولماذا يدافع ؟

عجبا ! أهناك قيم اسمى من هذه القيم الوطنية والانسانية تفرض على الاحرار ان يدافعوا عنها ؟ ليس السؤال في مثل هذه المواقف : لماذا يدافع الاحرار ؟ ولكن السؤال هو : لماذا لا يدافعون ؟

وقد فعل الشاعر ... فدافع .

اجل .. عاش حياته مدافعا عن معتقداته الوطنية والانسانية ، وشارك في كل احداث وطنه السياسية ، وتحمل — عن رضاء وايمان — كل ما اصابه من اضطهاد وتعذيب ، ونفي وتشريد !

وفي سبيل عقيدته ايضا شهر قلمه المرهف سيفا مصلتا على رقاب اعداء الشعب اليمني ، حتى تحقق النصر اخيرا لهذا الشعب العربي بثورته الرائعة : تلك الثورة التي ظهرت الى الوجود اليمني والعربي

(١) محاضرة القيت في جامعة بيروت العربية .

في اليوم السادس والعشرين من سبتمبر (ايلـول) ١٩٦٢ بزعامـة الرئيس السلال .

— ٣ —

واذا تصفحنا دواوين الشعراء المعاصرين في اي جزء مـن اجزاء الوطن العربي : فاننا ـ ولا ريب ـ نلتقي في كل ديوان منهـا بصفحات مشرقة من الشعر القومي ، تختلف من ديوان الى اخر كما ونوعا .

ولكن قلما نجد بين شعرائنا المعاصرين من وقف كل انتاجه او معظمه على الشعر القومي السياسي ، كما فعل الزبيري في ديوانه « ثورة الشعر»

وعن ذلك يحدثنا الشاعر بقوله : «وشعري او معظمه تطغى عليـه السياسة ، سواء ما كان منه مدحا ، وما كان رثاء ، وما كان ثورة ، ومـا كان شكوى ، او ما كان شيئا غير ذلك . وهذا هو منطق الواقع ، فـان حياتي كلها ليست حياة شخصية منفكة عن الحياة العامة بأي حال مـن الاحـوال » .

وطغيان السياسة ليس قاصرا على شعره ، انما هو اتجاه عـام عنده يتعداه الى كل انتاجه الادبي شعرا ونثرا ، وشاهدنا على ذلـك ديوانه وكتبه الاخرى مثل كتاب « الخدعة الكبرى » وكتـاب « مأساة واق الواق » .

مفهوم الشعر عنده اذن مفهوم سياسي ، وما اظنه في المرحلة التي عاشها وشارك فيها من تاريخ وطنه كان يستطيع ان يكثر من الشعر فـي أي غرض اخر غير السياسة . والا فكيف كان يتأتى له وهو الشاعـر الوطني الغيور ان يغني للحب او للطبيعة ، او لغير ذلـك من اغـراض الشعر ، وهو يرى كل يوم من مآسي شعبه ما لم تنكب به الانسانية فـي احلك عصر من عصورها ؟

ولعل خير ما يلخص مذهب الشاعر ومفهومه للشعر قوله من قصيدة يحن فيها الى وطنه وهو في منفاه :

اصبو الى امتي حبا ، وابعثهـا ... بعثا ، وابني لها بالشعر بنيانـا
أصوغ للعمي منـه أعينا نزعت ... عنهم ، وانسجـه للصم آذانـا
وما حمات يراعي خالقـا بيدي ... الا ليصنـع اجيـالا واوطانـا
يخاله الملـك السفـاح مقصلـة ... في عنقه ، ويراه الشعب ميزانـا

— ٤ —

والزبيري يمني صميم ، نشأ يتيما على شيء من الشظف والقلـة ، وبدا حياته طالب علم ينحو منحى الصوفية في روحانيتهم وعزوفهم عـن الحياة المـادية .

ولم ينتزعه من اجواء الصوفية غير عشقه للشعر ، حتى اذا تهيأت له ادواته ، من علم وثقافة وتجربة ، وجد نفسه امام قوتين غير متكافئتين: قوة الشر ممثلة في حكم الائمة يسومون الشعب سوء العذاب ، وقوة الخير ممثلة في قلة من شباب اليمن الاحرار ، وهبوا حياتهم لوطنهم .

وكان طبيعيا ان ينضم الشاعر الى قوة الخير ، الى هذه القوة التي ينتمي افرادها ببيئتهم واسرهم ومجتمعهم وعواملهم الوراثية ودولتهم ، الى ما قبل خمسمائة عام او تزيد ... ولكن كتب عليهم ان يفتحـوا اعينهم على عصر اخر غير العصر الذي ينتمون اليه، وان يكونـوا جسرا يعبر الشعب عليه ، ويقطع مسافة قرون طويلة . وتلك رسالة من اصعب الرسالات التي يتحملها جيل من الاجيال !

وكان في عقيدة ذلك الرعيل الاول من الشبيبة اليمنية ان جيلهم المخضرم لا يستطيع النهوض بتكاليف هذه الرسالة الا اذا نجح في امور ثلاثـة :

اولا ـ ان ينضج فهمه وانتماؤه لروح شعبه وروح العصر القديـم الذي ينتمي اليه شعبه نضجا تاما .

ثانيا ـ ان تكون عنده نزعة روحية ترتفع به فوق اهوائه الذاتية ، ومنافعه المادية ، لكي تكون هذه النزعة بالنسبة اليه كمحطة الفضاء التي يراد لها ان تكون مرحلة بين الارض والسماء .

وبغير هذا التسامي لا يستطيع الجيل المخضرم ان يقاوم عوامـل الضغط الهائلة من عالمين اثنين: عالم شعبه المعرق في القدم ، والـذي تسوده ـ كما يقول الشاعر ـ نواميس الموت والتحجر ، وعالم الشعوب

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

الحلقة الاولى

قصص سارتر

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروستراتـ صميمية ـ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٣٥٠ ق.ل

والحلقة الثانية

قصص كامو

في كتاب واحد يضم : الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ اليكم ـ الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

الثمن ٤ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب

العصرية الحديثة التي تلوح له بسحر حياة لا يستطيع ان يحياها بطريقة طبيعية كما هي ، مهما تكلف وتكيف !

على ان فهم هذا الجيل المخضرم لروح شعبه ، كان يقتضيه فهما كاملا لظروفه السياسية والاجتماعية والدينية ، وكل ذلك لن يكن ليتأتى الا عن طريق التجربة ، والتعامل مع القوي السياسية التي تمثل سلطان القديم كله . هذا الى جانب دراسة الشعب عن طريق ممارسة الحياة التي تحياها الجماهير ، ممارسة صادة عميقة ، لا ممارسة مسرحية !

ومن خلال الحس الوطني ، لمعنى المهمة التي ندبوا انفسهم للاضطلاع بها ، منذ اكثر من عشرين عاما ، راحوا يمارسون التجربة الحية على الطبيعة ، بنبش ركام شعبهم وحطام تاريخهم ورواسبهم الى الاعماق.

— ٥ —

وقد مرت ممارسة هذه التجربة في اطوار انتهت بهم هم الى اليقين الثوري ، ثم بهم وبالشعب اخيرا الى الثورة !

ففي الطور الاول للتجربة اخذوا يبشرون بافكار عصرية بحتة تنقل الى الشعب كما هي . بيد ان هذا الاسلوب لم يلق استجابة ، بل على العكس كان له رد فعل شعبي ورسمي مضاد ، وانطلقت الشائعات من حولهم ، كشائعة اختصار القرآن التي نسبت اليهم كذبا ، وسهل على الحكم الرجعي ان يلفي وجودهم بالسجن دون ان يكتشفوا على ضوء هذا التطور من التجربة معدن الحكام على حقيقته .

وفي الطور الثاني راح من بقي منهم خارج السجون ومنهم الشاعر يدرسون نتائج التجربة في طورها الاول ، منتهين الى انه لا يتم عمل ، ولا تقدم ، ولا تنجح دعوة عن غير طريق الدين ، الذي يستمد الحكام منه سلطتهم .

وقد رأوا أن نجاح الدعوة للثورة عن طريق الدين ، سيؤدي الى واحد من امرين : فاما ان يسمح الحكام للفكرة بالانتشار السلمي على مستوى الحكومة والشعب معا ، واما ان يرفضوها ويقاوموها ، وهي دعامة حكمهم ، وعندئذ يضطرون لهدم هذه الدعامة ، ويصبح حكمهم بغير اساس ... ولكن هذه المحاولة لم توصلهم الى شيء غير السجن !

وفي الطور الثالث ، اتجهت التجربة عندهم الى اسلوب الملاينة والتطامن للعاصفة ، بعد ان وجدوا انفسهم سجناء « جبال الاهنوم » النائية العالية في شمال اليمن حيث شيعة الائمة ينكلون بهم !

واستطاع الشعر في هذا الطور ان يقنع الحكام بانهم ليسوا اعداء لهم ، فأطلقوا سراح البعض بعد تسعة اشهر من السجن والتعذيب ، ملوحين لهم بالمال والمناصب ! ومعنى ذلك أن اولئك الحكام لم يتغيروا في شيء بعد اطلاق السجناء الا في الاستعداد لمساومتهم من الناحية الشخصية !

ويحدثنا الشاعر ان هذه المساومة قد انهت مدة تجربته مع الامام يحيى بالذات ، اذ ادرك عن يقين ان الامام يعادي كل تطور وكل اصلاح، وانه لا ينفع معه رفق ولا لين ، ولا استعطاف ولا ثناء .

ومهما يكن من امر ، فان هذا التطور من التجربة كان خصبا عميقا هاما ، فقد اعطى الشاعر ورفاقه الاساس الاول للثورة ، وهو اليقين باستحالة تغيير الامام يحيى عن غير طريق القوة .

ولم يكن هذا اليقين الثوري ليحصل ، الا بعد مرور التجربة بكل هذه الاطوار ، واهمها — كما يقول الشاعر — « استعطاف الشعر للحكام بكل ما فيه من تأثير عاطفي شديد ، ومن اسلوب لو توجهنا به الى الشياطين ، والابالسة ، لربما حولناهم الى طريق اخر ، او جعلنا منهم ملائكة وابطالا » !

ويذكر الشاعر ان نضالهم واحتكاكهم بالامام يحيى توجيها وتبشيرا، واستعطافا ومدحا ، وتطرفا واعتدالا ، وسجونا واغلالا ، قد اوصلهم الى عدة حقائق ثابتة تتلخص في : ان ذلك الامام عنيد مستبد متأله ، ينزع الى التسلط والاصرار على خنق الشعب ، ويرفض الحياة وتطور البلاد سلميا تدريجيا ، وان العزلة والتأخر والفساد في اليمن ليست آتية تلقائيا لعوامل تاريخية وجغرافية ، وانما للحكام دور اساسي في تجميدها وحمايتها ، وان عليهم ان يتحملوا جزاء هذا الدور ومسؤولياته . ولهذا كان لا بد ان يأخذ التطور في نظرهم طابعا ثوريا لا هوادة فيه !

وعندما تكشف الموقف عن هذه الحقائق اعلن هؤلاء الشبان حركة المعارضة العنيفة من عدن والقاهرة : وقد ادت هذه الحركة اخيرا في سنة ١٩٤٨ الى مصرع الامام يحيى وبعض بنيه ورجاله ، ثم الى فشل الحكم الثوري الدستوري ، والى المذابح والفتن ، والخراب والدمار ، ثم الى حكم الامام احمد الرهيب !

وما قيل من شعر في استعطاف الامام يحيى ، وفي الشكوى من اهوال السجن كان ينتشر انتشارا سريعا في صفوف الشعب ، ويحدث اثرا عاطفيا في صالح الاحرار المعتقلين ، ويهيىء الشعب لنقد تصرفات الامام .

ويبرر الشاعر ما قالوه من شعر في استعطاف الامام ومدحه ، بانه كان ينطوي على تصوير لالام السجن ، قصد به تسجيل هذه الحقيقة تاريخيا . ومن جهة اخرى فان المبالغات في المدح والشكوى والاستعطاف تقدم للاجيال — على حد رأي الشاعر — صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، ممن اوقعتهم الاقدار تحت رحمته ، فاضطرهم بقسوته واستبداده ومنطقه المتأله الى ان يمدحوه ذلك المدح ، الذي يتحول بطبيعته الى لون رمزي من الوان الهجاء !

— ٦ —

وعندما ظهر الامام احمد على مسرح الحكم استطاع في اول الامر ان يخدع الفئة الواعية من الشعب بظواهر تصرفاته ، كاطلاق سراح سجناء الشباب ، وتأمينهم ، ومطارحتهم الافكار والاشعار في مجالسه ، كما استطاع ان يخدعهم بالفاظ تصريحاته الرمزية التي توحي بالتذمر من حكم ابيه ونسبة الرجعية والفساد اليه .

وعلى هذا الاساس راح شاعر كالزبيري مثلا يمدحه مخدوعا وينفخ فيه روح الطموح والبطولة ، ويحركه باحلام الشعر واشواق المجد . ولم يكن ذلك من الشاعر لانه — كما يقول — يطلب منصبا او مغنما شخصيا ، فهو لم يتقلد منصبا ، ولم يقبل وظيفة ، ولم يكسب منه مالا ، وانما فعل ما فعل بغية ان يتلمس لبلاده منطلقا امجد ، وسبيلا لتطور واصلاح .

ولكن سرعان ما انقلب الامام احمد الى طبيعته ، وصرح على الملأ بانه سيلقى الله ، ويده مخضبة بدماء الادباء ، وان من يقرأ طه حسين والعقاد والرافعي وامثالهما سيلقى الموت !

وقد عظم هول المفاجأة على طليعة الاحرار عندما تبينوا ان حكامهم يكرهون النور والتجديد ، حتى ولون كان في صورة شعر يمدحهم ويتغنى بآمال الشعب فيهم .

ورب سائل يسأل : هل كان شعر المدح هذا أمرا محتوما ؟

ويجيب الشاعر قائلا : « نعم ، بكل تأكيد . فاصدار قرار بالثورة

فنـدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر

الصادقة المصممة المستميتة ، مع ضعف الحال ، وقلة النصير ، وجهل الشعب ليس بالامر السهل ، وليس من الشؤون التي يقضى فيها بالظنون والاوهام ، وتجيء نتيجة فورة عاطفية عابرة .

ان اليقين الثوري هو الاساس للثورة العميقة الصادقة ، وهو العامل الاول لصمودها . ولن يكون اليقين يقينا الا بعد جهد يبذل لدراسة الموقف . وسبر اغوار الدولة وقواها ورجالها ، وتجربة كل الوسائل غير الثورية علها تنجح في احداث التطور المطلوب .

والثورة لا تكون حقا ، ولا عدلا ، ولا وطنية ، كما لا تكون ناجحة الا يوم تكون ضرورة محتومة لا مفر منها . ان الثورة عنف وقتال ومذابح ، والمؤمنون بالتطور والاصلاح لا يقررون العنف والقتال الا بمبررات عادلة تبلغ حد اليقين ، والا كانوا مجرد سفاكين متهورين » .

وهكذا انتهت تجربتهم مع الامام أحمد الى النهاية التي انتهت اليها تجربتهم مع أبيه ! وبذلك تمت عناصر اليقين الثوري الذي يفرض على الشبيبة اليمنية الثائرة أن تنفض يدها من كل أمل في الوصول الى تغيير الاوضاع تغييرا سلميا على أيدي الحكام .

وقد أسلمهم الطور الاخير من التجربة ـ على حد قول الشاعر ـ الى مصيرين لا ثالث لهما :

فاما ان نرضخ ، وندفن رؤوسنا في المقبرة الموحشة التي دفن فيها الشعب ، وندخل فيما دخل فيه الاكثرون ، فنأكل الجيف ، ونعيش كما تعيش الدود في القبور ... أو نثور ...!!

وآثرنا الاشق الاصعب ... ولكنه الاشرف ... فتمردنا ... وانشدنا :

خرجنا من السجن شم الانوف ... كما تخرج الاسد من غابها
نمر على شفرات السيوف ... ونأتي المنية .. من بابها
ونأبى الحياة .. اذا دنست ... بعسف الطغاة وارهابها
ونحتقر الحادثات الكبار ... اذا اعترضتنا بأتعابها
ستعلم أمتنا ... أننا ... ركبنا الخطوب حنانا بها
فان نحن فزنا ... فياطالما ... تذل الصعاب لطلابها
وان زلق حتفا فياحبذا المنايا ... تجيء ... لخطابها
أنفنا الاقامة في أمة ... تداس بأقدام أربابها
وسرنا لنفلت من خزيها ... كراما ، ونخلص من عابها
وكم حية تنطوي حولنا ... فننسل من بين أنيابها !

ـ ٧ ـ

تلك ـ أيها السادة ـ كلمة عن الملابسات والظروف والاوضاع التي أحاطت بالشاعر ورفاقه ، وهي في الوقت ذاته ضرورية من حيث انها تعين على تقدير الشعر الذي نعرض له الان .

وقيمة الشعر الذي سجله شاعر اليمن فيديوانه « ثورة الشعر » ليست في صورته الشعرية الفنية وحسب ، وانما هي في ذلك وفي مضمونه السياسي الانساني وروحه الثورية ، تلك الروح التي وقف بها الشاعر يتحدى نظاما من الحكم أهون ما يقال فيه انه غير انساني !

ودراسة الادب الثوري عامة والشعر منه خاصة تظهرنا على انه يسلك عادة واحدا من اتجاهين ، تبعا لاختلاف أمزجة الشعراء وطرقهم ووجهة نظرهم في خلق الشعور الثوري لدى الجماهير .

وعلى أساس هذين الاتجاهين يمكن تقسيم الشعر الثوري الى نوعين : النوع الاول شعر مباشر صريح في الدعوة الى الثورة والمناداة بها علانية ، مع الاصرار على عدم استعمال مرادفات لفظة « الثورة » ومشتقاتها ، حتى ولو أمكن الوزن العروضي من ذلك .

أما النوع الثاني فشعر يهدف الى بذر بذور الثورة في النفوس ، مع تعهدها الدائم المتصل ، بكل ما يخز النفوس ويهيجها ، بقصد احداث طاقة من الجيشان أو الانفعال الباطن ، تظل تغذى وتحمى حتى تبلغ درجة الغليان فالفوران فالانفجار ! والشاعر في البلوغ بالنفوس الى مثل هذه الحال ، يسلك سبلا شتى وطرائق مختلفة ، تبعا لاختلاف أنواع الوقود بالنسبة للزمان والمكان والاوضاع .

وشعر الزبيري هو من هذا النوع الاخير ، انه شعر يستمد مضمونه من كل العناصر المتفجرة ، وبه استطاع أخيرا أن يكون أحد الدافعين بالشعب الى مرتبة اليقين ، بألا سبيل الى النجاة مما يقاسيه من أهوال الا بالثورة ... فثار !

***

وقبل ان ينطلق الشاعر بشعره على طريق الثورة ، وخاصة بعد ان تمت له ولرفاقه كل عناصر اليقين الثوري ، نراه يستهل العمل الثوري بوضع المادة الاولى في دستور الكفاح الشعبي ، حتى تكون منطلقا ومبدأ له ، ولكل من اختار مثله طريق الشرف والجهاد . في هذه المادة يحدد الشاعر في قصيدة مفهوم الكفر والايمان بالوطن ، وكأني به في الوقت ذاته يريد لهذه القصيدة ان تكون شعار الثوار ، ونشيد الاحرار ، فيقول :

كفرت بعزمتي الصامدة ... وقدسية الغضبة الحاقدة
وعمر شباب نذرت به ... لشعبي ، وأهدافه الخالدة
وبالشهداء .. وأرواحهم ... تراقبني من عل شاهدة
اذا أنا أيدت حكم الطغاة ... وهادنتهم ساعة واحدة

***

كفرت بعهد الطغاة البغاة ... وما زخرفوه ... وما زيفوه
وأكبرت نفسي عن أن أكو ... ن عبدا لطاغية توجوه
وعن ان يراني شعبي الذي ... يعذب عونا لمن عذبوه
أأجثو على ركبتي خاشعا ... لجثة طاغية حنطوه ؟
أتعنو لطاغية جبهتي ؟ ... فمن هو ؟ من أصله ؟ من أبوه ؟

***

وآمنت بالشعب حتى وقد ... رآه الورى جثة هامدة
تداعى حواليه أعداؤه ... ليقتسموه على المائدة !
فهذا بشاو شهيد يعيث ... وذاك يساوم في الفائدة
وذا لليتامى يهز السياط ... لتعبث بالجثث الراقدة !
وكم من وليد حذار الحمام ... رأى نفسه صافعا والده !

***

سأمضي عنيدا فلا أنثني ... وأحيا كريما .. فلا أنحني
وأرفع نحو السما جبهتي ... كما ارتفعت جبهة المؤمن
أموت خميصا ولا أقبل الـ ... ـفتات من القتال المحسن
أأطعم من قاتل أمتي ... أرى الدم في كفه المتن ؟
فلا نبضت نخبوة في دمي ... ولا عزني شرف الموطن
اذا حدت عن مبدئي أو رضيت ... بعيش من العار مستهجن !

ثم تمضي التجربة الثورية في طريقها ، وتزداد كل يوم دسامة وعمقا ، فاذا الشاعر يستلهمها ، ويضيف الى دستور الكفاح الشعبي مواد أخرى يلخصها بقوله :

لنمت أو نعش على الارض أحرا ... را .. ولا عاش من يسيغ الاهانة
ان شعبا يرضى الحياة سجينا ... لا يساوي في قيمة .. سجانه
وحياة تصان بالهول والاذ ... لال .. ليست خليقة بالصيانة
ودماء تنمو على الضيم رجس ... نجسات كراتها .. خوانة !
كل شعب محا اساطيره السودوا ... ري تحت الثرى أوانه
قد تلاشت كل العهود الذليلا ... ت ، وبادت كل الشعوب المهانة
واستحالت عبادة الناس للنا ... س ، وأمسى حمل القيود خيانة !

ـ ٨ ـ

والان ، وبعد أن حدد دستور الكفاح الشعبي وأعلنه ، يشرع قلمه ، ويتقدم الى ميدان المعركة ، ولكن بأي الجبهات يبدأ ؟ انه يبدأ بالتوعية الثورية في صفوف الجبهة الشعبية وهنا نرى الشاعر يعرض على الشعب صورا من حياته البائسة ، وواقعه الاليم ، وكرامته المهدرة وانسانيته الرخيصة المضيعة ، فلعله ان يفزع من بشاعتها وشناعتها فيثأر لنفسه .

ففي صورة من هذه الصور يتلفت الشاعر حوله فيرى الشعب بائسا جائعا عاثرا في شقائه ، وعلى الرغم من قيام الاحرار بالثأر له

فانه لا ينهض بالثورة مع تهيؤ دواعيها ، فـــلا يملك الا ان يخاطبـــه فـــي عجب :

أيها البائس الخميص ! متى تنـ ـهض من كبـوة الشقاء المديد ؟
قد غذوناك من دمـاء البـــاليـ ـل ، ومن أكبد الملـوك الصيـد !
فلماذا نـراك نضوا كمـا كنـ ـت ؟ تهل أنت طامع في المزيد ؟

وفي صورة اخرى يصور الشاعر دهشة الاحرار المثاليين مـن المدى الذي وصل اليه فزع الشعب من قسوة الامام يحيى ، فكيف ان شبح هذا الامام حتى بعد مصرعه عام ١٩٤٨ يظل مصدر خـوف للشعب ؟ ألم يروه بأعينهم مقتولا مقبورا ؟ لماذا يظل يتمثل لهـم فـي كل ما تقع عليه أعينهم من انسان وحيوان وجماد ؟ يا لله ! أي طاغية هـذا الذي يظل وجهه الرهيب يرعب الناس بعد موته ويبـدو لهم في كل شيء ؟

رب ! هذا الامام أشلاء مقتـو ـل ، وهذا قبر ..! وهذا رغام !
ورحاب الجحيم يصنع فيهـــا كل شيء مـن أجله ، ويقام !
يعجب المـوت انه لم يمت منـ ـه ، ولم ينج من أذاه الانـام
وزعت روحه على الارض يرتـا ع اليمانون منه حيث أقاموا
فاذا بالحيـاة شنعاء ... فيها كل شخص ، وكل شيء امـام !

وفي صورة ثالثة يصور حال العزلة الطويلة المفروضة على الشعب اليمني ، ويعجب كيف ان بعض الحكومات العربية تشجع حكامه على الاستبداد به ، في الوقت الذي كان يتوقع بحق الاخـوة العربية ان يساندوه في كفاحه ، ويعاونوه في الخروج من محنته . في هـذه الصورة يقول الشاعر :

ظل في العزلة الطويلة حتـى كاد ان يدعي الورى فقدانـه !
وتناسى ذوو الوشيجة قربـا ه ، أينسى ـ عفوا ـ أخاخوانه؟
زعموا انه بعيـد ..! ولو مـا ت لديهم ما شيعـوا جثمانـه !
ودعاهم قحطان يصرخ مـن هو ل الافاعي .. فشجعوا افعوانه !
ليتشعري ما بالهم أعرضوا عنـ ـه ، وداسوا دموعه الهتانة ؟
أتواصوا بمحـوه من على الار ض، ام استصغروا على الارض شانه؟

وفي أعقاب ثورة ١٩٤٨ ، تلك الثورة التي قتل فيها الامام يحيى وبعض بنيه ورجاله ، تكتسح اليمن موجة من اليأس ، ويركع الشعب أمام الطغاة ، وتتكاثر التهاني والمبايعات للجلادين ، ولكن روح الشاعر التي تستشف الواقع ، وتلمح ما وراءه من اصرار القوى الشعبيـة على المضي في الكفاح مهما كان الثمن ، تعبر عن ذلك الواقـع وتصوره في هذه الصورة :

مـن وراء الاكذوبـة المعبوده والتهاني الذليـلة الرعديـده
والهتافـات والضراعات للاصـ ـنام في ضجـة الطبول البليده
والمـزاد الـذي يجـدد بيـــع الشعب فيه بالبيعة المنكـوده
والعهـــود التي يكررها الطـا غي كآبائه ... ليشرى عبيده !
ورؤوس الابطـال يلهو وليـد القصر لهوا بها .. وتلهو وليده
والمحـاذير والمخاوف تفتـا ل الضحايا المفجوعة المفئوده
والقنوط الوحشي يفترس الاحرار في ظلمة السجـون البعيده
ألم الشعب قابعا يـدرس الثـ ورة.. كيما يأتي بأخرى جديدة !

ويبدو ان ما قاله الزبيري ورفاقـه من شعر التوعية الشعبيـة قد أدى دوره فـي اثارة روح التذمر والسخط والتمرد . فهذه قبيلة حاشد مثلا ، وهي من اكبر قبائل اليمن ، تشق عصا الطاعة على الامـام أحمد ، وينادي شيخها حسن بن ناصر الاحمر بالجمهورية ضد الملكيـة والائمة ، وان كان لم ينج هذا الشيخ هو وابنه حميد البطل اليمنـي من سيف الامام ، فقد ظفر بهما بعـد ان استسلما بالامان والوجـه، ثم أعدمهما غدرا وخيانة في يوم واحد بادئا بالابن ومثنيا بالاب !

ومهما قيل في هذه الانتفاضة التي انتهت الى مأساة فان الشاعر رأى فيها بوادر وعي وثورة على الطغيان والظلم ، ولهذا لم يفتـه ان يشيد بها ويحييها بقوله :

المـلايين العطاش المشرئبـة بدأت تقتلع الطاغي وصحبه
سامها الحرمان دهرا لا يرى الـ غيث الا غيثه والسحب سحبه

لـم تنل جرعـة ماء دون ان تتقاضاها بحرب او بغضبـة
ظمئت فـي قيده وهي تـرى أكاه من دمها الغالي وشربـه
ها هو الشعب صحا من خطبـه بينما الطغيـان يستقبل خطبه !

ـ ٩ ـ

ومن جبهة النوعية الثورية يتجه الشاعر الى جبهة تجار الوطنية ودعاة التخاذل والاستسلام . ثم يبدأ أول ما يبدأ بتجار الوطنية الجاهليـن بحقـوق الوطن ، والخائنيه لدى أعدائه ، فيفضحهم بقوله :

وكم جاهـل بحقـوق الوطـن يريـد عـلى كل خطـو ثمن !
اذا وخزت رجـله شوكـة تقـاضى جزاء عليها ومـن
فان لـم يحقق هـواه النضـا ل ، ثار على شعبـه واضطغن
وراح يـلوث طهـر الكفـاح ويبدي العيـوب ، ويذكي الفتن
وقـدم شكوى بنـا للامـام بمن ويحـه يشتكي ؟ ولمـن ؟
وعـوذه ضـد بطش الالـه روعي الشعوب ، وسيـر الزمن
وبشره بانتهـاء الكفـاح ووضع السلاح وموت اليمن
وان الملايين لا ترتجيـه غير الدعاء وغير الكفـن !
وغير الصـلاة على نعشهـا وبقيا خليفتها ... المؤتمن !

أما دعاة التخاذل والاستسلام فيرى الشاعر من أمرهم عجبـا ! فعندما أخذ نشاط الحركة الوطنية اليمنية يمتد الى عـدن ، أشفـق اولئك المتخاذلون على أنفسهم ، وراحوا ، بدافع من الجبن ، يعملون على ابعاد الاحرار عن المجتمع اليمني في عدن ، ويطاردونهم بشعارات العبيد كقولهم : « لا تحرقونا بنيرانكم ! » فهـل يسكت الشاعر عـن هؤلاء ؟ كلا ! ان عليه ان يقاوم هذا الشعور الانهزامي كي لا يستشري ! وقـد فعل ... فـي قصيـدة صيغ مضمونها من عصـارة التهكـم والسخرية ، منها :

دعـونا ولا تقربوا جمعنـا ولا تحرقـونا بنيرانكم !
رضينـا بأنا عبيـد الامـام وأنا كما شاء عمي وصم !
نكبـل أقدامنا بالقيـود ونعقـل أفواهنـا باللجم !
ونفرش مضجعنـا بالغبـاء ونقنـع مـن عيشنا بالحـلم
فمـاذا علينا .. لـو انا نعيـ ـش أعمارنا في الدجى المبلهم ؟

***

وهبنا الحيـاة لاوثاننـا .. ونبض القـلوب ، ونور البصر
فما نبتغي من شعاع الشموس ؟ وما نرتجي من ضيـاء القمر ؟
وفي الحشرات ... لنـا اسوة تزهـدنا فـي حياة البشر ..
وفي عالم الدود عيش هنـيء هبطنا الى مستـواه الاغر ..
ولو نستطيع النـزول البعيـد نزلنا لمستويات الحجـر !

ـ ١٠ ـ

ثم يخطر للشاعر فينتقل الى جبهة أعوان الائمة ، ممن وجـدوا أنفسهم ـ كما يقول الشاعر ـ في محراب الوثنية الامامية ، يقدمـون فروض التقديس والتمجيـد ، والطاعة الذليلة ، والانقياد المطلـق الاحمق ، لابشع ضروب الكائنات البشرية رجعية وانحلالا ، وفسـادا وطغيانا ، بعد أن قطع الشعب شوطا بعيدا في كشف خبيثتهم وتمزيـق أقنعتهم . وهؤلاء يصطنع الشاعر في محاربتهم والتنديد بمهانتهـم أسلوب السخرية اللاذع القاتل :

أعلنوا في الارض ان الشعب قـد أصبح عبدا
لم يجـد من وثن ـ بعبد دون الله ـ بـدا
قدموا منـه القرابيـن الى الطغيـان تهدى .
وانثروا فوق خطى السفـاك أزهـارا وورودا
واجعلوا كـل دم يسفكـه .. فخـرا ومجدا
أوهمـوه انكم منـ تباريحـا ... ووجـدا
وتعذبتـم لـدى غيبته .. غمـا .. وسهـدا
وبأن الشعب ما جاع طوى ... بل جـاع فقدا !
انما يرجـوه أن يمنحـه ... غـلا وقيـدا
ومزيـدا من دراهيـه ... وتقتيـلا وجلدا
وبأن يبقـى عـلى العرش الاله المستبـدا

شجعوه وادفعوه كي يسوس الحكم فردا
ويصير الواحد القهار والرب المفدى !
واجعلوه لا يرى عيبا ولا يسمع نقدا
والعنوا الاحرار كي تشفى حمياه وتهدا
وخذوا الاجرة منه ، رتبا عليا ... ونقدا
رب تفرير بطغيان من الثورة أجدى !

ويحدثنا الشاعر عن انفجار طلائع الثورة عقب قيام الامام احمد برحلة الى روما ، وعما زعمه أعوانه وقتذاك من أن الامن قد غاب عن الشعب اليمني بغيابه وان هذا الشعب بدون جلادين وسفاكين شعب فاسد التكوين ، عاجز عن الطمأنينة والامن !

وبأعجب من ذلك يحدثنا بأن التوقيع الرسمي الملكي المعتمد للامام والذي هو « الله احمد » ! كان في حقيقته تورية يدل معناها البعيد الخفي المراد على ان « أحمد هو الله » !

ويشفق الشاعر من ان يلقى زعم أعوان الامام أي صدى شعبي ، فيطلق صيحة مدوية ، يبدد بها هذا الزعم أو الوهم ، ويتندر بالتوقيع الاحمدي ، ثائرا في الوقت ذاته على هذه الوثنية اللاشعورية، التي تؤله الامام ، وتجعل من فرد عاجز مريض علة وجود الشعب وأمنه ! وعن هذا وذاك يقول الشاعر من قصيدة طويلة :

اصرخوا في الاذان : الله أحمد ... واجعلوه ربا سوى الله يعبد
وازعموا انه الحفيظ على الار ... واح ، والمستعان في كل مقصد !
والخبير العليم... عيناه فيكل ... مكان ترى الخفايا وتشهد
والمنيع المسحور ... لا ينفذ الخنجر فيه ، ولا الرصاص المسدد
في يديه الارزاق يمنحها من ... شاء من شعبه ، فيغني ويسعد
وهو ان شاء يمنع الرزق عن عب ... د ، فيعيا عن حيلة ويشرد !
وهو روح في الشعب.. لو تهجر الش ... عب ، تلاشى كجيفة .. وتبدد
وهو الدين والشريعة .. لو فا ... رقه شعبنا ... لألحد وارتد
مقلتاه الكبيرتان تحوط الشع ... ب من كل طارق .. يتهدد !

***

ولنسلم .. بانه كل شيء ! ... ولنقل : انه اله تجسد
غير انا نراه يمرض كالنا ... س ، ويحيا حياة من لا يخلد
أيها الواضعون كل مصير ... لهم في أحضان شيخ مسود
قدموا من رؤوسكم قطع التف ... يير ، ان شل رأسه أو تبلد
فاذا ما استطعتم ذاك .. فزتم ... بأمان ضد المخاطر سرمد
واذا ما عجزتم ... وعرفتم ... انه اليوم قد يموت او الغد
فاطلبوا أمنكم من الشعب.. ان الش ... عب باق ... وقادر ان تعهد
ليس أمنا .. الا الذي وهب الش ... عب ... ولا ذمة سوى ما تقلد
ليس مالا.. تلك الدماء التي امتصت ، وقلتم عنها : نضار وعسجد
كل قرش نهبتم ... ليس الا ... قاتلا .. غال جائعا وتعمد ؟

***

أيها الآمنون ... أخطر أمن ... أيها النائمون ... في شر مرقد
أيها التائهون عجبا .. لان الشعب في محنة الظلام .. مقيد
أيها الراقصون فوق حطام الشع ... ب ، والشعب صابر يتجلد
أيها الضاحكون.. والشعب يبكي ... أيها الرافهون.. والشعب يجلد !
لا يغرنكم سكون من الما ... رد ، يبدي الخنوع وهو مصفد
يومه قادم .. فويل لمن وا ... جه يوم الحساب غير مزود !

***

عجبا للجبان ... يستمنح الظلم ... أمانا ... للشعب أبقى وأخلد
يتوقى اغضاب محتضر فا ... ن ...وينسى شعبا صحا وتمرد !

— ١١ —

ومن جبهة أعوان الحكم البائد في اليمن ، ينتقل الشاعر الى جبهة الائمة أنفسهم فيهاجمهم في قلاعهم وحصونهم ، ويشهر بحكمهم الذي قلما شهد التاريخ له نظيرا في الطغيان والاستبداد ! وللشاعر في هذه المعركة مواقف عبر عنها في قصائد باهرة ، لا يتسع المجال لذكرها ، ولكني أكتفي هنا بنموذج واحد منها للدلالة على قيمتها الفنية والسياسية .

وقد استوحى الشاعر موضوع هذه القصيدة من موقف الامام أحمد عقب عودته من روما ، على اثر استدعاء أعوانه له ، واستنجادهم به في اخماد الثورة التي قامت في غيابه ، باعتباره رمز الرعب ، ووسيلة الفاء الوجود الشعبي .

فالامام لم يكد يصل الحديده عائدا من روما ، حتى وقف يحيي الشعب على طريقة الطغاة ، ولم تكن هذه التحية غير خطاب متوحش هدد فيه بقطع الرؤوس والايدي والارجل ، وطالب الشعب ان يبارزه ان أراد ..

وقد بارزه الشاعر باسم الشعب ونيابة عنه بملحمة شعرية كالبراكين ، يقذف كل بيت فيها باللهب والحمم في وجه الطاغية ، وهاكم بعض صورها :

خطبة الموت فاسمعوها وطيروا ... فرحا ، وارقصوا لصوت المنية
أنتم في استقبال موكب جزا ... ر ، فمدوا رقابكم .. للتحية
صدئت مدية الامامة فاستم ... نح ايطاليا مدى بابوية !
أنهك الذبح سيفه فأتانا ... بسيوف معارة ... أجنبية !

***

روح نيرون مازجت روح حجا ... ج ، فجاءت أعجوبة في البلية !
وأتى شعبه يهدده ... جهـ ... لا ببعث الرجعية الجاهلية
يتباهى بأنه الهول والوي ... ل ، ورمز الطغيان والعنجهية
لم يسل نفسه عن الشعب : كم كا ... بد في ظل حكمه من رزية !
لا يبالي مجاعة الشعب ما دا ... مت تفيد التجارة الجبلية
يتباكى تسولا باسم شعب ... أرضه بالكنوز ملأى غنية !
يجمع المجال للجياع ، فلا يشـ ... بع الا الخزائن المصرفية
وهبات تصدق الغرب والشرق بها في المجاعة الشعبية
باعها لليهود تجاره الاشـ ... رار ، في شر صفقة سرية
يقتل الجوع شعبه... وهو لاه ... يشتكي للطليان ضعف الشهية !

***

يستغل الاسلام حتى كان الـ ... ـدين يبدو كسلعة .. أحمدية !
وكأن الشرع الشريف كما شا ... ءت امانيه ـ للمخازي مطية
وكأن الطغيان والقتل والسلـ ... ـب فنون من العلى قدسية
وينادي : شريعة الله ، والله ... بريء ... من العروش الغوية !
لو رأى الله قلبه لتهاوى ... وتخلى عن كل مسؤولية ...!
ولألقى للشعب بالتاج يبني ... بيديه الحكومة الوطنية
وأراح البلاد من همه العا ... تي ، وأمراض عرشه الابدية !
وتوارى عن شعبه خجلا منـ ... ـه ، وأحنى جبينه للرعية !
وأبى أن تمحى البلاد ويفنى الشعب... من اجل نزوة شخصية !

***

ليس في الدين أن نقيم على الضي ... م ، ونحني جباهنا للدنية
ليس في الدين ان نؤله طغيا ... نا ، ونعنو للسلطة البربرية
ليس في الدين ان نقدس جلا ... دا ، ويمناه ... من دمانا روية !
الركوع الذليل في غير وجه الل ... ه ، رجعى بنا الى الوثنية !

***

أطلق الشعب من اسار ومكنـ ... ـه من الحكم في الخطوب العصية
أعطه حقه ورد .. اليه ... دون بطء حياته اللفيفة
ليس في الدين ان نكون بلا رأ ... ي ... ولا عزة .. ولا حرية
طبع الله في جوانحنا البأ ... س .. وسوى لنا الانوف الحمية
وجرى روح الله عبر خلايا ... نا ... مزيجا بروحنا الوطنية
والمزايا في الشعب للبعض دون الـ ... ـبعض ، سم الاخوة القومية
وعدو الجميع من يحكم الشع ... ب باسم القداسة العائلية
نحن أدنى لله من كل جبا ... ر ، وأولى بالشرعة النبوية
لا سيوف تذلنا ، لا سجون ... تصنع الرق في دمانا الابية
وسجون الارهاب والبطش والـ ... ـرق ، عقاقير ... باليات غبية !
فتاله ... وخذ مكانك فوق الش ... مس.. فوق العلياء .. فوق البرية

واتخذ سلما من الانجم الزه ... ر ، ونعلا من أكبد البشرية
وتنمر .. وابعث لنا هول عينيـ ... ك خلال الاشعة الكونيبة
وابتعد واحتجب، وكن أنت لغزا ... طي لغز المالية اليمنية
حيثما تختبيء من الشعب يدرك ... ك ، ولو في الكواكب الروسية
وتفجر صواعقا ... وتحول ... طبقا طائرا أو ارق رقية
وتوعد ما شئت..واقتل، ودمر ... واستعن بالجحافل الدولية
نحن قوم لا تحمل السيف أيدي ... نا ، ولا خنجرا ... ولا بندقية
غير انا عزم ... نسير كعزم الا ... ه في دربنا ، ونمضي مضيه
ضربة من ارادة الشعب بالسو ... ط ، تذل القنابل الذرية !

وتتمة لهذا الموضوع لا يكتفي الشاعر في مبارزته للامام بالجولة الاولى ، وانما يتبعها بجولة اخرى بغية الاجهاز عليه وعلى أعوانه الزاعمين بأن الشعب يخاف من نفسه ! في هذه الجولة يسأل الشاعر في انكار : هل يخاف الشعب من نفسه ؟ ثم يبادر فيجيب عن السؤال بقوله :

يقولون : غاب الامن اذا غبت عنهم ... فما خطبهم، يا ليت شعري! ومن هم؟
أشعب يخاف الشعب؟ فليهبطوا اذن ... جهنم ، أو تهبط عليهم جهنم
ألا يستطيع السير... الا مقيد ؟ ... ألا يستطيب العيش الا منوم ؟
ألا يمنح الناس بأرضنا الا ... بية الا السجن، والقيد، والدم ؟

***

يقولون : هذا الشعب عبد تلذه السياط ... ويعطيه الهناءة علقم
فان كنته يا شعب..فافرح بعهدك الـ ... ـذي أنت فيه مستضام ومرغم
وطب بالكرى عينا.. فانك موثق ... وعش صامتا..واهنأ فانك ملجم
ولا تخش من زلزال شعر أصوغه ... فانك ـ قد قالوا ـ أصم وأبكم !
ولا تتحرك .. لو تحرك جندل ... ولا تتكلم .. لو تكلم أعجم !
ولا ترتقب فجرا .. فحولك ظلمة ... تغوص بها كل النجوم وتظلم
وكن آمنا من لسعة النحل انه ... سيحميك ذئب أو يداويك أرقم !
هراء يقول الكافرون بشعبهم ... فسحقا لما فاهوا به وتكلموا

— ١٢ —

ثم لا يقف الشاعر بشعره عند حدود اليمن وما يضطرب في داخله من صراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والحرية والاستعباد . انما نراه بالاضافة الى كفاحه السياسي في الميدان الداخلي يعبر الحدود الى حيث يشرق ويغرب في أرجاء وطنه الاكبر ، منفعلا بأحداثه معبرا عنها بشعره .

وعلى سبيل المثال تهزه ثورة العراق الاولى فيحيي ميلادها بقصيدة منها :

صيحة الشعب في بلاد الرشيد ... أشعليها نارا وثوري وزيدي
ازحفي كالطوفان ياثورة الشعـ ... ـب الينا ... ودمدمي كالرعود
طهري جونا من الموت والصمـ ... ـت ، وهزي لنا بقايا لحود
اخوة نحن في القيود ... فهيا ... لنكن اخوة بخلع القيود
الطغاة الألى أغصوكم الري ... ـق ... بقاياهم لنا في الورود
وهم عندنا أراقم تخفي السم في لونها الجميل الودود !

ويصور حال شعبه الذي وقع ضحية وفريسة بين غاصب محتل وحاكم ظالم مستبد فيقول :

نصف قرن عشنا ينام به المحتل ... .. في أرضنا كنوم الوليد
هجعا كالفراغ لا يزعج المحـ ... ـتل منا غير السراب البعيد !
شطرنا يستفيث من غاصب فظ ... وشطر ... من مستبد عنيد !
وكلا القاتلين ينهش في جثـ ... ـة شعب نهش النهوم الحقود !
فاذا ما تصايحا ... فكقطيعي استباحا أشلاء جسم بديد !

ويدل بشعره على أعدى أعداء العروبة فيقول :

شر ما يقتل العروبة أوثا ... ن نربي طغيانها في المهود !
ونغذي فيها الوهية الافـ ... ـك ، ونعنو لسخفها بالسجود
ونريها بأنها الرمز للعلـ ... ـيا ، بلا علياء ولا مجهود !
تقتل الشعب أو تخون فلا تسمع غير التقديس والتمجيد !

ويشاهد أحوال الرجعية العربية التي اصطنعها الاستعمار أداة لتحقيق مآربه فيصفها بقوله :

وازدرانا العدى فاضفوا على أصـ ... ـنامنا البله خافقات البنود
جعلوا منهم حمى ... للخيانا ... ت ، وجسرا للغزو والتهديد
وسلاحا لقتل كل شريف ... وأداة لهدم كل مشيد
منذ كانوا أجنة فهم امـ ... ـلوك ، أو أولياء عهود !
يرثون الشعوب ارثا رخيصا ... دون كد ، ودون بذل جهود .
كيف يأتيهم الشعور بأنا .. ... آدميون مثلهم في الوجود ؟
سوف لا تشترى الشعوب ولا تبتا ... ع ... من ماجن ، ولا عربيد
فقد الاجنبي آماله فيهم ... فلم يبق عندهم .. من رصيد !

ويصف الشاعر انطباعه عن مصر وشعبها في عهدها الجديد فيقول :

اني لأحيا بالمعزة في بلاد الاكرمين
الرافعي علم العروبة فوق هام العالمين
الصامدين أمام تيار الاعادي الطامعين
الواقفين مواقف الآساد في قلب العرين
الساحقين بعزمة الابطال هام المعتدين
الحاملين على عواتق حكمهم عبء القرون
الصاعدين الى الذرى متضامنين مصممين
الطالعين على الظلام طليعة الصبح المبين
الصانعين نواة وحدتنا ، تراث الاولين
المنقذين قناتنا من قبضة المتناصبين
المنصفين الفقر من شطط الغواة المترفين !
الباعثين من التراب جلال ماضينا الامين
كره العدى لهم دليل أن حكمهم أمين
بشرى لنا انا نؤازر عهدهم متجمعين
حرب المصائر لو خسرناها هلكنا أجمعين !

— ١٣ —

وبعد ... فان من الصفات التي يتحلى بها من يتصدون للقيادات الجماهيرية ومن يختارهم القدر للوقوف امام قوى البغي والشر انهم لا يشكون او يبكون مما يصيبهم من بلاء أو مكروه في سبيل تحقيق ما ندبهم القدر له . بل انهم على العكس من ذلك يجدون في الاضطهاد والتعذيب من أجل العقيدة والمبادىء حافزا على مضاعفة الكفاح والاصرار عليه ، لانهم لا يتوقعون من اعداء الحياة المناهضين لهم خيرا أو سلاما .

ولكن أشد ما يؤلمهم ويوجعهم حقا ان يجدوا ممن يدافعون عنهم وعن حقوقهم من يتشكك في حسن نواياهم ، ويقذفهم بالتهم الباطلة في وجوههم ! وذلك ما حدث للشاعر ورفاقه الاحرار ، فانهم لم يسلموا ممن يحسدونهم على التفاف الشعب حولهم والثقة بهم !

فماذا قال الشاعر لهؤلاء القاعدين المعوقين ، الحالين بمجد بلا ثمن ؟ لا شيء أكثر من عتاب وانذار : عتاب لاولئك الحاسدين ، وانذار نهائي يوجهه الى حكام اليمن .

أما عتابه للحاسدين ، والذي يدل على مدى أريحية العربي الاصيل ولطف شمائله فيقول فيه :

أيها الغاضبون من ثقة الشعـ ... ـب بنا .. والمؤلبون علينا
أيها المرهقون .. يأسا وغما ... وانهماكا في هدم ما قد بنينا
أيها الحاسدون من أجل عبء ... قد ونينا من ثقله وانحنينا
لو حملتم من امره ما حملنا ... لاشتكيتم من الاسى ما اشتكينا !

***

أيها الزاعمون انا احتكرنا ... دعوة الحق وحدنا وانزوينا
ما احتكرنا نضالنا .. بل دعونا ... فرفضتم ان تفهموا ما عنينا
هالكم صبرنا على كل خطب ... فوقفتم من ذعركم ومضينا
أنتم..ليس نحن.. غبتم..ليبقى ... شرف الحق كله في يدينا ..

يعـــلم الله اننا نتمنى .. لو رجعتم .. بعد العقوق الينا
بل وندعو .. ان تسبقونا وتجنوا ثمرات الختـام مما ابتدينـا !

***

أيها الكارهون أن يقبل الشعـ ـب علينا ... بالله ماذا جنينا ؟
عرفتنـــا آهاتـه .. ومآســ ـيه ، فنؤنا بنارهـا واصطلينـا
سقمـــه يعـرف العلاج بأيدي ـنا ، ويدري بوعيـه كم شفينا
أي ذنب لنا .. اذا عـرف الشعـ ـب لنا اننا له قـد وفينا ؟
جرحه دله على جرحنـا الدا مي ، فسوى ما بيننا واستوينـا
دمعـه شاهد بأنا شربنـــا ه كؤوسا من الاسى واحتسينـا
خطبه عاش بيننا .. فهو يدري كم جرينا ... لطبه وسعينا !
أذنـه لا تكاد تسمع مرثـا ة تعزية غير ما قـد رثينـا
صهرتنا آلامه ... فامتزجنـا واتحدنـا بروحه .. والتقينا
منحونا الدنيا لكي ننبذ الشعـ ـب ، ونغضي عن ظلمهم فأبينـا !
ويبيعـون ألف تاج بأسمـا ل فقير من شعبنا .. ما شرينا !

أما انذاره النهائي الى حكام اليمن الواقفين باصرار وطغيان في طريق انبعاث الشعب وتقدمه فيقـول فيـه :

أيها الظالمون .. أهي صخـور ما هززنا منكم ، وما ناديـنا ؟
احذروا يوم الشعب يـوم يلاقيـ ـكم ، ويعطي الدرس الذي أعطينا
ويقول النوام : ها نحـن أحرا ر .. سحقنا هول الدجى وصحونا !
يوم ينقض شعبنـا كالبراكيـ ـن ، يريكـم من امره ما أرينـا
وترون الجمهـور جن فلا يعـ ـرف لينا ، ولا يخـاطب هونـا
من عبيد ... تخر آلهـة اليو م لهم سجدا .. وتطلب عونا !
وحفـاه يبغون من جلد جنكيـ ـز حذاء .. يقضي لهم منه دينا
وجياع تضج كالرعـد فيكـم : أطعمونا من لحمكـم ما اشتهينا
وقبور تنشق عمن قتلتـم فينادونكم : ألا قـد اتينـا !
وكنـوز من الحرام يراهـا مقتنوها الطغاة .. هلكا وحينا
وقصور .. يخر منها ذووهـا ويقولون : ليتنا ما بنينـا !!

أجل — أيها الحفل الكريم — لقد أكرهتهم ثورة الشعب اليمنـي أخيرا على ان يفروا من قصورهم ، متنكرين مذعورين الى خارج الحدود، عظة وعبرة لامثالهم الطغاة ، ممن يعيشون بعقلية عصور الظلام !

وبعد ... فان التنقل مع الشاعر في ديوانـه « ثورة الشعر » فيه متعة للنفس ، وغذاء للقلب والعقل ، واذكاء للشعور ، ولا أزعـم اني بجولة الليلة فيه قد ألممت بكل أبعاده ، وان كانت قد دلت على محتواه . وهو محتوى اذا أخذناه نموذجا للشعر اليمني المعاصر ، فانه — بلا شك — يعطينا صورة واضحة عن الدور الطليعي الذي قام بـه هذا الشعر في التوعية الثورية ، تلك التي انتهت بالشعب الى اليقظة فالحركة ، فتحطيم القيود ، فالثورة ، فالانطلاق في أمل وايمان الـى تشكيل مصيره حرا كما يريد ، لا كما يريد له حكام العهد البائد !

ولعلكم على ضوء النماذج التي ذكرتها الليلة تشاركونني الـرأي في ان هذا الشعر السياسي الثوري وليد تجارب ذاتيـة ، وانه يتميز بالقوة والجمال ، والصراحة والجرأة ، والصدق في الشعور والتعبير عن نزعة الشاعر واتجاهه القومي .

واذا بحثنا عن العناصر التي أعانته على البلوغ بشعره الى هذه المكانة المرموقة ، فاننا نجدها في أصالة شاعريته التي تهيأت لهـا كل عناصر الشعر الرفيع ، وفي رهافة حسه ، وصوفيته التي لـم تفسدها الحضارة المادية بترفها ولهوها ، وفي شعوره بالظلم المفروض ظلما على شعب من أذكى الشعوب العربية وأعرقها حضارة ، ثم فـي عقيدته الوطنية الخالصة ، عقيدته التي تأبى المساومة على الحـق ، وتنكر الهوادة في طلبه !

واذا كان الزبيري قد قصر شعره أو معظمه — كما يقول — عـلى مذهبه السياسي ، فانه نجح في تطويع كثير من أغراض الشعر واحالتها الى أغراض سياسية ، يستلهم فيها عقيدته ، ويستوحي مضمونهـا من احداث الوطن وواقع حياة الشعب ونضاله . ومعنى ذلك انه وهب شعره لعقيدته ، وفني فيها فناء تاما .

أما عن سمات شعره وخصائصه ، فيمكن تلخيصها في سمـة أو خصيصة واحدة ، هي الجدة في كل شيء :

فهو جديد في مضمونه ، لانه شعر مذهبي عقيدي أوجدته ظروف اليمن في مرحلة المخاض الثوري ، واستمد عناصره السياسية منها .

وهو جديد في معانيه ، فكلها قد اقتبسها الشاعر من أحـلام الغد المرجو ومن وهج الصراع الناشب في يمن ما قبل الثورة بيـن قوى الخير والشر ! مع التعبير عن كثير من هذه المعاني بأسـلوب السخرية والتهكم اللاذع !

وهو جديد في الوسائل التي استخدمها لتحقيق هدفه مـن الثورة على حكم الطغيان والفساد ، والتخلف والجهـل ، وهز روح الشعب وكرامته كي يغضب ، فيثأر لنفسه ، وينتزع حقوقه المغتصبة ، من مخالب المغتصبين !

وهو جديد في أخلاق صاحبه وعواطفه ، لما تجلى فيه من وفـاء للعقيدة ، وثبات على المبدأ ، وصمود في الكفاح ، وفدائية في البـذل ، وجرأة في الحق ، والزام للنفس بما يلزم وفوق ما يلزم ، وتعبـاطف مع الشعب ، وايمان به على الرغم من كل شيء !

ثم هو جديد في دماثة لفته ، وجمال أسلوبه ، واشراق ديباجته ، ونفوذ خياله ، وعذوبة موسيقاه !

وبهذه الجدة المتعددة الجوانب في اطاره اليمني انفصل شعـر الزبيري عن سابقه ، وربما عن كثير من الشعر اليمني المعاصر ، حتـى صار لونا مستقلا بذاته يعرف به . وهو بالنسبة لسياسة اليـوم شبيه بشعر الخوارج بالنسبة لسياسة الامس .

ومن العسير على دارس ديوان « ثورة الشعر » ان يفصل نشاط صاحبه السياسي عن نشاطه الشعري لاقترانهما وتلازمهما . فكلاهمـا متأثر بالاخر مؤثر فيه . ومن ثم فالدارس لهذا الديوان يجد نفسـه أمام شاعر سياسي او سياسي شاعر !

على ان الزبيري في الواقع ليس الا واحدا من شعراء كثيريـن أظهرهم الشعب اليمني خلال نضاله الطويل ، وكفاحه الشاق المريـر ضد حكام متألهين مستبدين ، حكام يريدون ان يميتوا شعبا حيا اولا ، ثم يحكمونه ثانيا على صورة ينطبق عليهم فيها قول شوقـي فـي السلطان عبد الحميد :

ما في رعاياك من تخشى عداوته فاحكم ، فأنت على الاموات سلطان !

فاذا أخذنا مثالا لشعراء اليمن الاحرار ، فاننا نستطيع الحكـم بأن الشعر اليمني المعاصر قد نهض وتطور ، وقام بدور أساسي فـي تاريخ اليمن السياسي والاجتماعي الحديث ، مع بلوغه في الوقت ذاته من الناحية الفنية درجة ملحوظة من الاصالة والتجديد ...

***

ولكن أين الزبيري بعد الثورة المباركة ؟ انه هناك في اليمن ، لـم يلق سلاحه ، ولم يتوقف لحظة عـن العمل والكفاح !

انه يساهم اليوم في معركة البناء القومي وزيرا للتعليم ، وفـي يده مشعل ثوري يبدد بنوره ظلام الجهل ، الذي فرض على اليمـن ظلما منذ أجيال وقرون !

فتحية واكبارا لأخ عربي مناضل ... شاعر ثائر !
تحية له ولرفاقه الاحرار ، من شهداء وأحياء !
وتحية للثورة المباركة وزعمائها !
ثم تحية للشعب الذي صبر وانتظر ، ثم حطم القيد وانتصر !
وليكن شعار اليمن منذ ميلاد الثورة وأبدا :
الى الامام ، الى الامام ..!!

عبد العزيز عتيق